العلوم العربيّة وحريق مكتبة الاسكندريّة

نظر انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي (تتمة)

٢ حريق مكتبة الاسكندريّة

هذا البحث الثاني الذي قصدنا النظر فيه لانتقاد المقالتين الطويلتين اللتين حرّرهما كاتب الكوثر في هذا الباب مشدّدًا علينا النكير في نسبة ذاك الحريق الى العرب عند فتحهم الاسكندريّة . والحقّ يقال انّنا لم نبحث حتى الان في هذا الامر بحثًا علميًا وانّا اكتفينا برواية نصوص لبعض كتبة الاسلام القدماء ليس الّا لننفي عن ابن العبري التهمة بابتكار هذا الخبر. وعليه فانّ غضب كاتب الكوثر واقع على الرواة المسلمين ولا يمسّنا البتّة وان كان احد يستحق النسبة الى التعصّب فليس هو الناقل مثلنا بل هو الناكر لشواهد اهل ملّته وائمة كتبتها

ونعدُّ هذا كافيًا للدفاع عن شخصنا الّا انّنا نضيف الى هذا القول الاجمالي الملحوظات التالية التي من شأنها ان تمهّد الطريق لتعريف الحق فنقول:

(اوّلًا) انّ احتجاج كاتب الكوثر بالحديث في ردّ شواهد المؤرخين عن حريق مكتبة الاسكندريّة لا محلّ له هنا في واقع تاريخيّ شهد لصحّته مشاهير كتبة الاسلام. قل لي ناشدتك الله لو اردتُ تزكية احد ائمّة النصارى عن اثم قرّفهُ به المؤرخون أفتُقبل حجّتي لو استندتُ الدفاع الى آية وردت في الانجيل الطاهر فاردّ مثلًا جريمة القتل عنهُ بقولي أنّ المتّهم نصرانيّ وانّ الانجيل يأمر بحبّ الاعداء وينهي عن القتل ؟ لا لعمري

(ثانيًا) كذلك لا ينفع الكاتب احتجاجهُ بكتبة الفرنج لاسيما القدماء. فانّهم لم يطّلعوا على ما اكتشفهُ المستشرقون وارباب البحث المحدثون من المؤلفات القديمة فتحاملوا جزافًا على ابن العبري المؤرخ اليعقوبي الشهير ظنًّا منهم انهُ رمى الكلام على عواهنهِ واخترع هذه الرواية الكاذبة فانّ ابن العبريّ توفّي سنة ١٢٨٦ ومولدهُ سنة ١٢٢٦ للميلاد وكان سبقهُ قبل ذلك كاتبان مسلمان من اوثق الكتبة رويا حريق مكتبة الاسكندريّة على يد عمرو بن العاص بامر وردهُ في ذلك وهما عبد اللطيف البغدادي

المتوفّى سنة ١٢٣٢ مسيحيّة (٦٢٩ ﻫ) في كتابه الشهير للمنون بالافادة والاعتبار في الامور المشاهدة بارض مصر (ص ٢٨ من طبعة بولاق) والوزير جمال الدين علي الشهير بابن القفطي المتوفّى سنة ١٢٢٧م (٦٢٤ ﻫ). ومن ثمّ سقطت حجّة كل من نسب زورًا الى ابن العبريّ اختراع الخبر لتعصبه الدينيّ فزعموا انّ شهادته «مجروحة» وروايته دون سند ولا دليل كما نقل الكوثر (ص ٤١٠)

(ثالثاً) ولا نرى كيف يثبت كاتب الكوثر قوله (ص ٤٦١) بان كتبة العرب نقلوا هذا الخبر عن غير مسلمين «فاغترّوا بكلامهم لسلامة نيّاتهم وصفاء ضمائرهم» فليتفضّل جنابه ويُفدنا عن اسماء الكتبة النصارى او اليهود الذين سبقوا عبد اللطيف وجمال الدين ابن القفطي فاخذ هذان عنهم لأنّ دعوى مثل هذه لا تقوم الّا بالبرهان

(رابعاً) وزاد عجبنا من كاتب الكوثر اذ ردّ شهادات ائمّة كتبة ملّته كابن خلدون والمقريزيّ والحاج خليفة وعبد اللطيف البغدادي وجمال الدين القفطيّ وكلهم معروفون كرجال فضل لم نجد احدًا من قدماء الكتبة زيّف شهادتهم او فنّد رأيهم او نسب اليهم قلّة التروّي في النقل ولاسيما ابن خلدون الذي هو المؤلف المسلم الوحيد الذي وضع في مقدّمته قوانين الانتقاد التاريخيّ فكيف يجوز ان تُنبذ شهادته دون ادلّة

(خامساً) ولا يقنعنا احتجاج الكاتب بقوله انّ هؤلاء الكتبة رووا امرًا بعيدًا عنهم لم يذكره المؤرخون الاوّلون. ولكن كم من التآليف القديمة قد تلفت اليوم وكان يعرفها هؤلاء قبلنا. أفيقبل العقل انّ كتبةً مبرّزين كالذين ذكرنا رووا واقعاً كهذا دون سند او اخذوه عن كتبة ملّة اخرى دون الفحص والتروّي. وخصوصاً جمال الدين القفطيّ الذي كان وزيرًا مولده في مصر وخلّف مكتبةً جليلةً وصفها ابن شاكر صاحب فوات الوفيات في ترجمته (طبعة مصر ٢: ٩٦) وصنّف كتاب تاريخ مصر في ستّة مجلّدات من اوّلها الى زمن صلاح الدين

(سادساً) وعليه لا نرى في ردّ كاتب الكوثر (ص ٣٦٤) على جمال الدين ابن القفطي جواباً مقنعاً بل لم يفهم عبارة ابن القفطي فظنّ (ص ٣٦٥) انّ عمرو بن العاص حبس يحيى النحويّ واطلقه من السجن وليس شيء من ذلك في رواية ابن

القفطي الذي روى قول يحيى لعمرو « ان يأمر بالإفراج » عن كتب اليونان ولا تبقى محجورةً فظنّ كاتب الكوثر انّ ابن العاص القى يحيى في السجن ثمّ افرج عنه (١ فتأمّل ! . كذلك استعظم قول يحيى النحويّ لعمرو « بزيد كتب الحكمة في الخزائن الملوكيّة . . . ونحن محتاجون اليها ولا نفع لكم بها » فقال انّ كلاماً مثل هذا « ناشئ المستحيلات » وهو على خلاف ذلك من اقرب الدلائل على صحّته لأنّ العرب الفاتحين لمصر لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانيّة بل لم يشتغلوا بالعلوم الّا بعد ذلك بزمن طويل كما اثبتنا سابقاً افيُستغرب قول يحيى لعمرو : انّكم لا تحتاجون الى كتب مكتوبة في غير لغتكم فاسمحوا لنا بها لنتنفع بها . فاين الغرابة في ذلك ؟ ومن هنا ايضاً ترى بطلان احتجاج كاتب الكوثر في نفيه صحّة قول ابن القفطي عن عمرو انه « سمع من الفاظه (اي يحيى) الفلسفيّة التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هالاه » اذ بيّنّا انّ العلوم الفلسفيّة لم تدخل بين العرب قبل اواخر القرن الثاني للهجرة فلا عجب اذن لاندهاش عمرو بن العاص من علم يحيى النحوي

(سابعاً) وفي الشواهد التي نقلوا كاتب الكوثر للردّ علينا ما يبيّن جهارًا بانّه نقل عن كتبة اوربيين ولم يراجع الاصول التي اخذوا عنها فترجو من لطفه ان يفيدنا عن الاسئلة الآتية : ١ً أيعرف تاريخيّ ابي حنيفة واحمد بن يعقوب اللذين ذكرهما ؟ (ص ٤١٢) . ٢ً من هو « ابن عصية » المذكور هناك . أفيريد به ابن ابي اصيبعة ؟ فكيف حرّف اسم كاتب اشهر من النهار . ٣ً لم نعرف تاريخاً « ليوسيكوس بطريرك الاسكندريّة » كما ذكره (ص ٤١٣) ولعلّه يعني بـه سعيد بن البطريق المسمّى افتيخيوس او افتيشيوس وقد نُعني بطبعه كاتب هذه الاسطر . ٤ً وكذلك لا نعرف كاتباً يسمّى ألمين (ص ٤١٣) . ولعلّه اراد « جرجس بن العميد الشهير بابن العميد » . ٥ً وليتكرّم ايضاً بالافادة « عن المؤرخ اورسيوس » ويثبت لنا

---

١) ومن غريب ما جاء في مجلّة الكوثر من سوء الفهم انّهُ ظنّ اننّا بذكرنا للرهبان البندكتيين الذين خلّصوا من ايدي البرابرة كنوز العلوم اردنا العرب وكلّ يعرف ان كلمة برابرة (les Barbares) تُطلَق على الشعوب الشماليّة التي فتحت مملكة الرومان في اوربّا ولا تعني العرب البتة

شهادتهُ بالحرف مع ذكر الكتاب الذي وردت فيه . كما هو متعارف عند العلماء في ابحاثهم

ولنا على كاتب الكوثر غير هذه الملحوظات الّا اننا نكتفي بما سبق فندخل في البحث عن مكتبة الاسكندريّة وما يُعرَف اليوم من تاريخها ومن امر تلفها مستندين الى اقوال العلماء المدققين الذين في هذه السنين الاخيرة امعنوا النظر في ذلك فنذكر خلاصة ابحاثهم

١ ﴿ ما هي مكتبة الاسكندريّة ؟ ﴾ كان في الاسكندريّة مكاتب متعدّدة واخصُّها مكتبتان شهيرتان (١ : الاولى مكتبة التحف الاسكندري وكان موقعها في حي بروكيوم (Bruchium) انشأها على ما هو مرجّح اوّل الملوك البطالسة بطليموس سوتير ووسّعها ابنهُ بطليموس الملقّب بفيلادلف اي محبّ اخيه ولم تزل تزداد بالتآليف النفيسة حتى انّ عدد كتبها كان بالغاً في اواخر عهدها ٧٠٠,٠٠٠ على قول المؤرخ اولوجال الرومساني (Aulu - Gelle, VII, 17) امّا المؤرخ تيت ليف (Tite-Live) على ما روى سنيكا الفيلسوف (Seneca, *de tranquill. anim.* IX, 4) فذكر انّ عدد الكتب لم يتجاوز ٤٠٠,٠٠٠ وهذه المكتبة تلفت بالحريق سنة ٤٨ قبل المسيح لمّا حاصر يوليوس قيصر مدينة الاسكندريّة على قول المؤرخين المذكورين

والثانية مكتبة السيرابيوم (Serapeum) المدعوّة بهذا الاسم لوقوعها في جوار هيكل سيرابيس وكانت تُدعى « بالمكتبة الفتاة » لانّها كانت اصغر من المكتبة السابقة (S' Epiphan. : *De mensuris*, 11) والظنون انّها اغتنت بما جُمع فيها من كتب الخزائن الملكيّة التي كان عددها بالغاً ٤٢,٨٠٠ مجلّد ومن كتب مكتبة برغاما البالغة ٢٠٠,٠٠٠ كما ورد في تاريخ بلوتركوس (Plutarque, *Vie d'Antoine*, 58) وفي هذه المكتبة كانت بعض الكتب الثمينة كالتوراة العبرانيّة كما روى ترتليان (Tertullien, *Apolog.* 18) وكتراجم الكتاب المقدّس اليونانيّة لاكويلا وسوماخوس وتلودوطيون التي استفاد منها اوريجانوس

(١ استندنا في ذكر هذه المطومات الى منقولات حضرة الاب فافر (J. Faivre, s. j.) اليسوعيّ الذي اشتهر بابحاثهِ العاديّة عن الاسكندريّة وجمع فيها نصوص معظم الكتبة القدماء

٢ ﴿ هل تلفت مكتبة السيرابيوم في القرن الثالث او الرابع ﴾ زعم البعض انّ هذه المكتبة أُصيبت بخسائر عظيمة في وقت الحروب التي جرت في الاسكندريّة على عهد كركلا وما بعده الى ايّام ديوقلطيانوس ولكن ليس شاهد واضح على قولهم واثنا رأيهم محمول على الحدس والتخمين . وقال غيرهم انّ المكتبة الاسكندريّة تلفت في السنة ٣٨٩ لمّا تولّى البطريرك تاوفيلوس عمّ القديس كيرلّس الاسكندري خرابَ هيكل سيرابيس بامر الملك تاودوسيوس قالوا انّ المكتبة وقتئذٍ تبدّدت وتلاشت واستدلّوا على ذلك بشهادة المؤرخ « بول اوروزيوس » فرووا عنه « انه شاهد المكتبة خالية من الكتب بعد احراق كتبها بعشرين سنة اي سنة ٤١٠ » . فالجواب على ذلك انّ تاوفيلوس لم يحرق شيئاً وانّما اخرب فقط هيكل إله الوثنيين امّا الابنية المجاورة للهيكل حيث كانت المكتبة فلم يمسّها كما افاد معاصرهُ المؤرخ ايفاغريوس (Evagre, *Hist. Eccl.*, II. ٢) بل لم يذكر احد من قدماء المؤرخين تبذير المكتبة وتضعضعها . وكان تاوفيلوس من علماء زمانه فلا يجوز ان يُنسب اليه عمل كهذا الّا بالبيّنات . امّا شهادة « بول اوروزيوس » (Paul Orose, *Hist.* VI, 15) الذي يدعوهُ ابن خلدون اوروشيوس ويستشهد بهِ مرارًا فانّ كاتب الكوثر نقل كلامهُ كعادتهِ عن كتبة اوربيين لا يوثق بروايتهم ولو راجع تاريخ اوروزيوس الذي هو تحت نظرنا لرأى انّ هذا المؤرخ لم يتكلّم عن حريق هذه المكتبة بل عن المكتبة الاولى المحروقة على عهد يوليوس قيصر ومتى شاء بيّنّا لهُ ذلك بالبرهان فيرى كيف خلط اولئك الاوربيون ولم يحسنوا النقل

٣ ﴿ أيعرف شيء من امر هذه المكتبة الى ايّام الفتح الاسلامي ﴾ ليس لدينا دليل يفيدنا شيئاً عن مكتبة الاسكندريّة بعد شهادة القديس ابيفانيوس المتوفّى سنة ٤٠٣ . ومن الشواهد التاريخية المكتشفة حديثاً تاريخٌ وُضع بالسريانيّة ونقلهُ الى اللاتينيّة العلّامة الايطالي اغناطيوس جويدي (Ign. Guidi : *Chronica Minora*, pars I, 22 et 23) فجاء هناك في تاريخ سنة ٦٠٠ اي قبل الهجرة باثنتين وعشرين سنة ذكر رجل اسمهُ بطرس يروى عنهُ انهُ فتح مدينة الاسكندرية لجيش الفرس ثم قال : « وكان بطرس المذكور فيلسوفاً منكبّاً على درس الحكمة منذ صغرهِ وكان قرأ في ذيل احد كتب مكتبة المدينة ما سيحلّ بها من الضنك . . . » . فقولهُ

« مكتبة المدينة » (ܒܝܬ ܡܕܝܢܬܐ) شاهد لامع على وجود مكتبة عموميّة لمدينة الاسكندريّة في ذلك الوقت على خلاف ما زعم البعض

﴿ ما رأينا في امر حريق المكتبة على يد العرب ﴾ لا يمكننا القطع بهذا الامر فاننا نتردّد بين الايجاب والسلب. اما الايجاب فاوّلاً لانّ الكتبة المسلمين سبقوا الى رواية الحادث كما رأيت ولا يقبل العقل انّهم نقلوا الامر دون ان يتحقّقوه وفيه ما فيه من قصّة حريق المكتبة. وثانياً لانّهُ لم يفنّد احد من بعدهم قولهم بل تناقلهُ المسلمون والنصارى دون اعتراض. وثالثاً لانّ غيرهم من الائمّة اثبتوهُ بما يشبههُ فرووا من حريق العرب للمكاتب في العجم وغيرها ما نقلنا شواهدهُ عن ابن خلدون والحاجّ خليفة وقد جمع المستشرق الشهير دي هامر شواهد اخرى لا حاجة الى ذكرها. ومن المحتمل ان يكون عمر بن الخطّاب خاف أن يجد اعداء العرب في تلك الكتب ما يقوّي عصبيّة الرعايا ويحملهم على نقض الطاعة للفاتحين وهم لا يعلمون مضمونها ويجهلون لغتها فيكون ذلك الفعل سياسة منهُ

اما وجوه السلب فاوّلاً لانّ ما رواهُ كتبة العرب من مسلمين ونصارى لم يروهِ احد من كتبة بقيّة الامم كاليونان واللاتين والاقباط وكان حقّهم ان يذكروهُ في تواريخهم ولعلّهم فعلوا في ما لم يبلغ الى ايدينا

وثانياً لانّ يحيى النحوي الذي يقال عنهُ انّهُ راجع عمرو بن العاص في شأن مكتبة الاسكندريّة لا يُعرف زمانهُ بالتدقيق. والعلماء في ريب من بلوغ حياتهِ الى عهد العرب فيزعمون انّ عمرهُ يكون بلغ نحو ١٣٠ سنة وهذا امر نادر جدًّا

وثالثاً لأنّ في رواية جمال الدين ابن القفطي ما يصعب تصديقهُ كتفريق الكتب على حمّامات الاسكندريّة فاوقدت مدّة ستّة اشهر. وكان للاسكندريّة اربعة آلاف حمّام. فلو بلغ عدد كتب المكتبة الملايين لقصرت عن ايقاد الحمّامات مدّة ستّة اشهر الّا ان يقال بتفريقها على حمّامات قليلة

فبين الايجاب والسلب ينبغي على العاقل ان لا يقرّع الى الحكم وربّما تأتينا الاكتشافات الجديدة بادلّة تزيل كل الشبهات وهذا آخر كلامنا في هذا الصدد